

كسب هذا الموقع الذي كانت تتوارثه ذات العائلة، أباً عن جد، والتمسك بعدم التفرغ به. وفي حكاية الصراع التاريخي بين الحسينيين والنشاشبديين، ما يمكن ان يضيء هذا الجانب^(١١). بهذا نقترح، وان يكن بنوع من الايجاز والتبسيط، من الاشكالية التي تريد ان نضع اليد عليها، ونعتبرها الحقل الهام أكثر من غيره في اضاءة طبيعة التناقض الذي ميز العلاقة بين الرجلين، بما انهما ينطلقان باسمي مرجعين متعارضين، في اطار الفكر والممارسة الايديولوجية الاسلامية. لقد كان من الضروري للمفتي، وهو الذي جاء الى قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية من نفس المؤسسة الدينية التقليدية التي اشرنا الى طبيعتها، وهو الذي ينبغي لنا تسجل له ذكاه وقدرته الحادة التي استطاع بها ان يوسع هذه المؤسسة، من اطار صفتها الدينية الى ان تصبح المؤسسة التي تقود حركة وطنية واسعة النطاق وذات صلاحيات تتعدى الاطار الديني المرسوم لها^(١٢). نقول، لقد كان من الضروري وهو يقوم بذلك، ان يرتاب من المغزى الذي كانت تنطوي عليه الدعوة القسامية، ومن شخصية زعيمها، وخصوصاً من التوجهات التي تنطوي عليها، وهنا ربما يمكن تفسير الحادثة السابقة التي اشرنا اليها، ليس باعتبار ان المفتي كان معارضاً للعمل المسلح، كما حاول معظم المؤرخين ان يأخذ بذلك، وانما لكونه كان يحمل اصراراً على ان يبقى هو المهيمن الفعلي على كل ما يتعلق بنشاطها، وان يبقى هو، بما يمثل، صاحب القرار في ما يتعلق بالخيارات التي تطرحها الحركة الوطنية.

إن هذا الارتباب الذي كان ينظر من خلاله المفتي نحو التوجهات الايديولوجية والسياسية للقسام وحركته، كان يعكس، في حقيقة الامر، طابع هذا التناقض الذي بيننا جوانبه وهو الامر الذي كان يستدعي من جانب المفتي، وقد امسك بزمام قيادة الحركة الوطنية بيد، وباليد الأخرى بالمؤسسة الدينية الرسمية الوحيدة^(١٣)، ان لا يتهاون مع أي اتجاه أو مشروع من خارج المؤسسة التقليدية التي يعبر عنها، يمكن ان يشتم فيه بذوراً لنزع المشروعية الروحية التي ينطق باسمها، او بذر الشكوك فيها. لقد كان الامر يتعلق بالدفاع عن المؤسسة الدينية، كما كان يتعلق، بذات القدر، بالدفاع عن موقعه الرمزي في قيادة الحركة الوطنية. وهكذا كان على المفتي، وهو يخوض المعركة ضد خصومه التقليديين الذين ينازعون موقعه، في مرحلة بلغ فيها التعارض والانشقاق في صفوف الحركة الوطنية الفلسطينية ذروته، ان يسعى الى توظيف الحركة التي مثلها القسام والصدى الشعبي الذي لاقته في المرحلة الأولى، طالما ان هذه الحركة قد اجهضت قبل ان تتمكن من نشر مشروعها - كما لو انها تمت بايحاء منه وتوجيهاته، ويتنسق كامل معه. أما في المرحلة الثانية، مرحلة دفع الهجمات والانتقادات التي رجعت الى دوره في قيادة الحركة الوطنية بعد الهزيمة، فقد كان من الضروري ان يكون القسام، واحداً من رجالاته، المقربين منه، واحد اركان الحزب العربي؛ وهكذا كان لا بد للمفتي ان يصمت هو الآخر، كما فعل داعية اليسار قبل ذلك، عن الجانب الرئيس في شخصية الرجل الذي ظل يرتاب منه. ولكن إذا كان الطائي قد صمت عن ذلك مرة، فقد صمت الأول مرتين.

إن، بعد ان انتهينا من استعراض الطريقة التي تعامل بها كل من داعية اليسار والناطق باسم المؤسسة الدينية التقليدية، نصل الى بحث الموقف الذي يتبناه داعية القومية الليبرالية. ولقد قلنا قبل ذلك، اننا لأسباب تقنية، سوف نؤجل بحث هذه الشخصية الثالثة الى الآخر. وهنا يتوجب علينا ان نوضح هذه الاسباب، ان في رأس الاسباب التي دعوتنا الى